ماذنبها ؟...

أقصوصة مصرية

بقلم الآنسة جميلة العلايلي

صعق الرجل عند ما بلغه خبر خطبتها وكان على يقين من أنها لن تتزوج غيره ، لأنها أحبته بدليل أنها بادلته الحب وارتضت به زوجاً ، والآن ما عساه يفعل ... هل ينتقم ؟ أم يقتاساها ويحب غيرها ؟ أم يسعى إليها علها تعود إليه ... ؟

وارتمى الرجل على مقعده مهموماً مفكراً يتخيلها بجمالها الرائع وروحها الساحرة وعواطفها الطاغية وعقلها النابه ...

استعاد كل ماضيه وما يحمله من ذكرى جامحة ، فأحس أن خسارته بفقدها لن تعوض أبداً ... أبداً ... وأنه لن يعثر على فتاة تماثلها عفة ورقة وسحراً وذكاء ...

فما أعظم المصاب !

بكى فلم يرفه الدمع عنه !

وخرج إلى الشارع يمشى كالشارد فاصطدم بسيارة حمل على أثرها إلى المستشفى ... وظن الأطباء أن الحمى التى انتابته من أثر الصدمة . ولو أنهم كانوا بخفايا القلوب عالمين لعرفوا موضع الداء الدفين ، ولأدركوا أن الحمى فى قلبه ، وصداها فى مخه !

خائنة ... غادرة ... مجرمة ...

لم يكن لديه سوى ترديد هذه الألفاظ بصوت متقطع محموم ...

وشكت الممرضة فى أمره ... واستطاعت أن تفهم بحكم غريزتها أن أمام ناظريه خيال امرأة ، قد تكون سبب هذه الصدمة أو سبب هذه الحمى ... الله يعلم

وانتهزت فرصة غفوته العميقة فانسلت خفية إلى غرفته تبحث فى محفظته ... حتى رأت بين أوراقه رسالة موجزة من فتاة تقول فيها :

أخى الفاضل

لا أحب أن أكون أكذوبة هائلة فى تاريخ حياتك ، إذن يجب أن نسدل الستار

واستمع إلى بعقلك ولعلك لا تكون من الظالمين . لقد تمارقنا على غير ارتقاب ، وتحابينا لغير غاية ... ولعلك تذكر يوم لقيتنى فى منزل الخالة وقدمنى إليك زوجها ... وكان ذلك فى عيد ميلاد ابنته ... وانتهزت فرصة خلو المكان إلا منا فحدثتنى عن نفسك فى صراحة مطلقة أكبرتك من أجلها ... وصورت إلى فى مرارة ما تعانيه من حرمان وآلام من جراء يتمك ... ولم تكد تصل إلى هذا الحديث المحزن باكياً فى هدوء حتى أحسست أن دموعك خرجت من قلبك لتسكب فى قلبى ، ولذا أؤكد لك أن دموعك وحدها هى التى جذبتنى ... ثم عرجت فى حديثك على حياتك الخاصة فأفهمتنى أنك تلهو بالحسان وتقضى طوال الليل خارج الدار مع جمهرة من الشبان وعلقت على ذلك بأنك مضطر إلى هذا الفساد لخلو قلبك من الحب ولعدم توفيقك إلى إمرأة تحميك وترعاك ...

وافترقنا على أمل أن تكون كصديقين أو أخوين، ولم أر غضاضة فى قبول صداقتك ما دامت تدفع عنك الضر والشر كما زعمت ...

تراسلنا وتقابلنا وحاولت جهدى أن آخذ من رسائلى أداة لإصلاحك وأن أسيطر على عواطفك كلما قابلتك لأوجهك إلى الطريق المستقيم ...

فلم أدع صغيرة ولا كبيرة تدفعك فى طريق الجد إلا لفت نظرك إليها ...

أغريتك بكل ما فى قلبى من رحمة وبكل ما فى عقلى من ذكاء لأنتشلك من البؤرة الدنسة وأرفعك من الأوحال إلى سماء الطهر والكمال ...

فكنت تكتب إلى بأسلوب رائع لتوهمنى أنك تسير فى الطريق الرجو فى غير هوادة ... وأنك على خير ما أتمنى لك من خير وفضيلة

وبرغم تصرفاتك الخاطئة التى كنت أكتشفها بالمصادفة . . كنت أتسامح وأقول لنفسى من العسير أن يتحرر من قيود المجتمع دفعة واحدة ...

وفى الواقع ياأخى أنت بارع فى تلفيق الأكاذيب .. بدرجة أننى كنت أثق فيك مع أن البراهين تؤكد سوء تصرفك .. والكذب عندك غريزة. أوه .. لطالما ضايقنى كذبك وأرقنى وأسلمنى إلى أمر الآلام وأظلم الأحلام ... ورغم ذلك كنت أريد أن أجرب قدرتى فيك ...

فكنت أتجاهل وأتسامح علنى أنجح فى تأدية مهمتى ...

ولكن عبثاً ...

كيف أنجح وأنت بعيد عنى تعيش هناك كما يحلو لك . . . مطمئناً إلى تسامحى وحبى . . . فى الواقع لم أحبك ...

ولكننى اتخذت الحب وسيلة إلى إصلاحك لأنك أفهمتنى أنك لا ترتدع عن الإثم إلا إذا أحبتك امرأة ...

ولم أمقتك بل كنت أشفق على شبابك الذى يذويه الفجور وكنت أتمنى أن أخلق منك الرجل الكامل ، ثم أدع الطبيعة بعد ذلك تدنينى منك أو تقصينى عنك ...

نوهت لى عن الزواج فلم أمانع ... لا حباً فيه أو فيك ... بل رغبة فى أن أصل بك إلى مستوى أرفع من مستوى الرجال ... ضحيت فى سبيلك بمالى ووقتى وجمالك محور تفكيرى وحسى ... على أمل أن تصلح ولكنك كنت تقول ولا تفعل ... كنت تصارحنى بأنك ستعمل كذا وكذا ... وقد عملت كذا وكذا ... فإذا اكتشفت الحقيقة واستوضحت الأمر ... ظهر كذبك ونفاقك ...

ربّاه ... لشد ما عذبنى هذا وكنت أصبر راجية أن تكون من المهتدين ...

كانت رسائلى وحدها كافية لإصلاحك وكان حنوى وعطفى كافيين لإشباعك . . . ولكنك فى الواقع خلقت لغير الحب الأكيد — صدقنى —

لم يكن فى نيتى أن أحب غيرك أو أتزوج سواك؛ إذ كنت أريد أن أشعر بالتيه الخالد ، لأننى خلقت رجلاً ... وعجيب أن يكون للعاطفة شيطان يحولها من الفضيلة إلى الرذيلة ومن الأمل إلى اليأس ومن الحب إلى الكراهية ...

وكان شيطان حبى ... كذبك ... فعلنى عليه وحوله إلى يأس مرير

ولطالما صارحتك بذلك وقلت لك إن الرجل الذى يكذب مرة لا يصدق مرة. وأخشى أن تفقدنى بسبب

هذا الكذب مخاذر ... فكنت تدافع فى براعة المحامين ولباقة السياسيين حتى أضطر للسكوت لا عن إيمان وتسليم بل عن جد ورجاء ...

أخيراً ...

أجل أخيراً أيقنت أننا لو تزوجنا لا يمكن أن نتفق أبداً ... أبداً ... وسنكون وصمة فى جبين التفاهم الروحى الأكيد — فآثرت أن أقف بجانبك موقف الأخت البارة ترعاك من بعيد بقدر المستطاع مرحبة بالخطيب الحبيب لما بيننا من تفاهم وتآلف ... وأحمد الله الذى وحد بين قلبينا وروحينا ...

والذى أريده منك الآن ... أن تعود إلى رسائلى وأن تستعيد ذكرى كل ما قلته لترى أننى أخلصت لك يوم ظننت أنك تصلح لأن تكون مثلى الأعلى ... فلما واجهتنى بحقيقتك تنبه وجدانى ، فإذا بالحب كظلك الذى تلاشى عند ما اختفيت عن ناظرى فى آخر لقاء ...

يا سيدى ... أو يا أخى إن شئت : الحب كالبنيان تندك قوائم عرشه بالثقة ويزعزعه الشك وأخيراً يحطمه الكذب والبهتان

ونصيحتى إليك أن تحب المرأة صادقاً وتفهمها صادقاً وتكشف لها عن مساوئك صادقاً ، ثم حاول إصلاح نفسك صادقاً . إنها تدفع دمها ثمناً لهذا الصدق . والشيطان يسخر منك عند ما يحلل لك الكذب مخاذر . . .

كوثر

* * *

فهمت الممرضة كل شىء ... فأشفقت على الرجل وفكرت ، أترى المرأة أخطأت ؟

وكانت الممرضة ذكية فلم تشأ أن تحكم لها أو عليها حتى تراها ...

ولكن كيف ؟

آه ... ها هو عنوانها فى الرسالة ...

إذن فلتكتب إليها فالمريض يحتضر ويدعوها ...

وظل المريض يهذى :

خائنة ... غادرة ... مجرمة ...

اندمل جرح الصدمة الطارئة ولم يندمل جرح القلب الدامى ...

حتى جاءته

مريض يحتضر يدعوها ؟ ... ولم تجد غضاضة فى عيادته .

وأفهمتها الممرضة فى حكمة ودهاء ... أنها بعثت إليها رحمة به لأنه يهذى باسمها وقد فهمت من هذيانه كل شىء .

فشكرتها الفتاة وولجت باب المريض فى هدوء ولهفة ... ونادته ...

فرفع بصره فى بطء ، وقد اربد وجهه فجأة ... ثم غض طرفه ملياً ، وأخيراً ابتسم فى مرارة وقد انطلق وجهه وغمغم ... كوثر ...

قالت : ساءنى مصابك . لكن الممرضة طمأنتنى فالحمد لله

قال : وهل تهمك حياتى ... خير لى أن أموت

قالت : كيف لا تهمنى حياتك وأنا أرجو لك كل خير وتوفيق ...

وهنا أحس الرجل بانتعاش غريب فنسى ما كان يشغله من الهواجس القاتمة ، واعتدل فى مقعده ثم اقترب منها لتمتزج أنفاسها العبقة بأنفاسه الحرّى قائلاً : أوتذكرين يا كوثر ما مر من حلو الأيام ...

فلم تشأ أن تغير مجرى خياله وقالت : طبعاً أذكر

فابتسم وأعقب : أتذكرين يوم اجتمعنا فى غفلة

القدر تحت نخيلة في إحدى الحدائق النائية وكنا أشبه بعصفورين أليفين ضمهما الوكر في جو الصفاء، وأحسست يومئذ رغم حاجز العفة الذي كنت تحرسين دائماً على إقامته بيننا أننا التحفنا بغطاء واحد — لا أذكر كيف كان — أكانت ماديتنا هي التي تعلو روحينا، أم نور الحب هو الذي كان يكتنفنا حتى بتنا كأننا نور من نوره. لقد كنت أجهل موضعك مني وموضعي منك ... ولما سألتك: أين أنا منك؟ أجبتني: وأين أنا منك؟

ولم يكن كلامنا بهذه الحروف المعهودة بل كان بلغة الصمت الجليلة التي تنساب من قلب إلى قلب كما ينساب النور في الأفق. ولما قلت لك: يخيل إلي لو أنني جردت نفسي من العفة واعتصرتك لما ارتويت أبداً ... أبداً ...

فأشحت بوجهك عني حياء وابتعدت عني ثم قلت: لأنك بقدر ما تسلب مني أسلب منك!

فانهمرت دموعي من فرط النشوة وقلت: كل يوم يزداد حسنك كأن في معينك كنزاً من الجاذبية لا يفنى

فلت برأسك دلالاً قائلة: من عند ربي. ولما عاودني السهوم وأنت حيالي وبدا على وجهي ظلال أحلامي ...

أهبت بي إلى مكالمتك ... ولكنني كنت متفانياً في نفسك سارحاً في جنبات قلبك

وظل قلبي يخفق، ونظرك يتعلق

وما زلت أذكر نشيدك الذي كنت أتغنى به دائماً كأنه تعويذتي الخالدة:

أخشى عليك من العباب   يطغى عليك بلا حساب
يا قرة العينين بل يا منـــية القلب المـذاب
تفديك روحي يا حبيبي   في حضور أو غياب
ما العيش بعدك في الحياة   سوى بريق من سراب
خـذني إليك ونجني   مما أعاني مـن عذاب
أنا إن أعش فلأجل أن   ألقاك عنوان الشباب
أنا إن أعش فلأجل أن   أدنيك من كل الرغاب
أمودعي عنـد المساء   وتاركي لضني ارتقاب
أتخاطبني؟ مهلاً لعلي   أن أعود إلى صوابي!
يا مهجتي الحرّى حنا   نك قد سئمت من العتاب
ماذا عليّ إذا فتحت   له لدى الترحيب بابي
ووهبته ما شاء من   عناقي وحبي المستطاب
يا ويح نفسي، هل أطيق   غيابه بعد اقتراب؟
أأطيق وهو هو المضيء   بخاطري مثل الشهاب؟
يا من هدته عواطفي   في كل مختلف الشعاب
أبداً أحن إليك يا   رمز الأماني العذاب

وهنا انشرح ملياً ثم عاد يتأملها في لهفة بادية قائلاً: غني يا كوثر ... أعيدي على مسمعي هذا النشيد ... إن كلامك أعذب من أغاريد البلابل ... غني غني ...

فاغتصبت بسمة وقالت بصوت تشيع فيه المرارة:

— عند ما تعاودك العافية كاملة أسمعك أجمل الأناشيد ...

فانتصب واقفاً قائلاً:

— أنا بخير ... انظري ... هأنذا أتحرك ... وأسير أيضاً ... في مقدوري أن أخرج الآن ... ولا بد أن أخرج معك ... لن أتركك تخرجين وحدك

فأشفقت عليه لأن آثار الحمى كانت ما زالت ظاهرة عليه وقالت:

— لأعودك فى الغداة وأصحبك إلى الخارج ...
والآن يجب أن أخرج ...

وحاول أن يستمهلها فاعتذرت وانصرفت وتركته واجماً ساكناً لا يبدى حراكاً كالطفل الصغير الذى تتركه أمه فيعجز عن اللحاق بها أو استبقائها بجانبه

* * *

مرت الأيام وهى تعوده ... حتى عوفى وترك المستشفى ... وطلب إليها أن تزوره فى منزله فوعدته

وانتظر فى الميعاد فلم تحضر، ومرت الأيام تباعاً ولم تعد ...

وعثر الرجل على الرسالة وكان نسيها، أو لعل الحمى هى التى أنسته إياها فقرأها ...

تذكر كل شىء ... فثار جنونه واشتعل وجدانه مفكراً فيما يصح أن يعمله. حتى صح عزمه على أن يبعث بجميع رسائلها إلى خطيبها، وهى مجموعة موفورة من الحب المشبوب المتأجج، وفيها ميثاقها على ألا تتخذ منه بديلاً ...

* * *

قد يتخيل المحب أن فى مقدوره أن يصفح ويغفر وأن ينسى الإثم والبهتان

وقد يسهل ذلك على المحب العاقل النبيل إلى حد ما ...

وقد يعتقد المحب أن حبيبه كان يحب من قبل غيره ... ولكنه لا يساير هذا الاعتقاد إذ ليس لديه ما يثبته ... حتى إذا حدث ما يؤكد هذا الزعم حدث ما لم يكن فى الحسبان؛ فإما هجر لا لقاء بعده، أو شك يظل يعذب صاحبه على طول الأيام ...

وخطيب الفتاة كان رزيناً حكيماً ولكنه إنسان له غرائز البشر وخصائص الحب ...

لطالما قالت له الفتاة إنها عرفت كثيراً وجاملت بعض المحبين، وسارت أحياناً فى طريق الحب إذا تراءى لها عفاً بريئاً حتى إذا تكشف لها عن خدعة تنحت عنه وابتعدت ... وكان يستمع إليها ويسامرها دون أى عبث أو ملام ...

ولكنه اليوم بعد أن تسلم رسائلها ساوره الشك واعترته الريبة؛ وفاجأها ثائراً لائماً وكأنها تبدلت من ملائكيتها إلى شيطان رجيم أمام ناظريه فاهتاج وراح يرميها بأبشع التهم وهى ساكتة هادئة باسمة ...

حتى إذا انتهى قالت له : كلانا خدع فى الآخر يا سيدى ... أنت ظننتنى ملكاً كريماً فأحببتنى وأنا ظننتك المثل الأعلى للرجولة الكاملة فأحببتك. والآن ... ليس ثمة ما يدعو للغضب ما دمنا فى أول الطريق ... فليبحث كل منا عن شريكه ...

فاغتاظ وفاض شكه وقال : آه فى الطريق أكثر من رجل ينتظرك لأنك رميت شبكة الخداع على كثيرين ... أصدقينى هل أحببت هذا الرجل ؟

قالت : أجل ، كما أحببتك قبل اليوم . فدهش الرجل لجرأتها، ولكنه ظن أنها تهاجمه فعاد يقول : ولماذا لم تتزوجيه ؟ قالت : إذا خاب الحب انتصر العقل بما يكتسبه من التجارب والأهوال ... أما الزواج فخيانته موت لا حياة بعده مهما تجدد يظل طابع الخيبة على جبين المرأة مدى السنين ... وصمتت ملياً ثم قالت : يا سيدى إن الرجل إذا أحب صدقاً يغفر للبغى إثمها ... وأنت كما زعمت تحبنى ... فكيف تريد أن تحاسبنى على تصرف لا تدرى كيف تمامه ولماذا ؟ !

إذا صعب عليك أن تغفر ذنبي في ماضي فقد صعب عليك أن تنفر ذنوبي في حاضري والإنسان لايسلم من الخطأ ... إذن ابحث لك عن فتاة لم تتعرف على أي رجل ، وأنصحك أن تأخذ طفلة لم تبلغ الرابعة من عمرها ... وتركته وانصرفت

يا للشيطان ... إنه يلعب على مسرح العقول ببهارة ...

خرج الرجل وانقطع عنها فوطنت النفس على أن ترفضه وتسلوه ...

وحاول الرجل أن يسلوها فلم يستطع لأن ثقته بطهرها من اختباراته كانت أشد تأثيراً في نفسه من شكه فيها ، ولكن يعاوده من حين إلى حين وقع رسائلها في نفسه فيأرق ويتألم ، وظل كذلك ... حتى ذلك اليوم الذي بعثت فيه أخته إلى كوثر رسالة تدعوها لزيارتها لأمر هام ...

فذهبت كوثر ، وفي نيتها أن تضع حداً للعلاقة بينها وبين أخيها وتعلن له رفض يده ...

وهناك قابلتها أخته ، ودخل الخادم يطلب الأخت لمقابلة الوالد ... فخرجت وغابت ... ثم دخل الرجل ... دخل الرجل الحبيب الأول ... مفاجأة لم تكن متأهبة لها . كيف حضر إلى هنا . ولماذا ؟!

لم يترك لها الرجل فرصة لمخاطبته إذ قال : كوثر ... يدهشك أن ألقاك في منزل خطيبك ، وبعد أن عرف علاقتنا القديمة ... ولكنه نبيل كريم كما يدل تصرفه ... إذ لم يشأ أن يحطم قلبي فأباح لي لقياك هنا لنجدد العهد وقد تنازل عنك لي

فضحكت الفتاة متهكمة وقالت : ها ها ها . أتراني سلعة وأنا لا أدري !

لم تعد لي صلة بك أو به ...

فقاطعها : أنسيت حبي يا كوثر ... لقد أحببتني حباً لم تحبه امرأة لرجل وكذلك أحببتك أنا ...

فعادت تضحك ، ثم قالت : لقد أحببت طيفاً مجهولاً فيك ... أما أنت فلم أحبك ... أحببت الإنسان الذي أنشده فيك ولو كنت أكتب وعليه أحنو ؛ فلما وجدت ذاتك غير قادرة على حفظ الروح الذي أهفو إليه تنحيت عنك باحثة عن مقر ذاك الروح

لقد كنت تحاول أن تخدعني بالحب لتباهي بحبي تخدعتك بالحب أيضاً لأعرف حقيقتك ؛ فلما عرفتها ارتفعت إلى سمائي ... ولعلك لاحظت فيما مضى أني كنت أحاول دائماً أن أرفعك إلى الأفق الذي أعيش فيه موطنة النفس على القناعة بك لو استطعت الصعود إلي ... فلما فشلت وعجزت عن السمو بنفسك إلى مستواي ... تركتك في الأوحال وحدك وحلقت في عالي النوراني هناك ... فما ذنبي أنزيد أن أهبط إلى الأرض لأعيش معك لأكون محبة وفية بينا في عمق هذه المحنة الذلة والهوان ...

لماذا لم ترتفع بإنسانيتك إلى سمائي مادمت تهواني كما كنت تزعم ....

إن الرجل الذي يعجز عن السمو بنفسه في سبيل الحب لا يقدر قيمة الحب ولم يكن محباً أبداً ...

أفهمت ما ذنبي إذا استغللت الحب في سبيل الإصلاح فإذا عمّر الخراب به أجمل به من حب ، وإن عجز عن البلوغ بصاحبه إلى الغاية المثلى فليذهب في ذمة التاريخ الضائع ...

ماذنبي إذا ابتسمت ساخرة من هفتك في التعبير بي ظناً منك أن كل الفتيات أسيرات الكلام المنمق والحب المصطنع !

ما ذنبي إذا تغنيت بعذب النشيد مناجية الإله المجهول ، ففاتك المعنيّ بذلك القصيد ؟!

ما ذنبي إذا صعب عليك تفهم الحقيقة لتدرك معنى الحب ؟!

وما ذنبي إذا عجزت عن إصلاح نفسك لتدعيم حياتك كما ترجو ...

فقاطعها : أنت الجانية . كان في مقدورك إصلاحي ورعايتي ... لقد تركتني وسط أعاصير الحياة الهوجاء

فقالت : أكنت تريد أن أحبس نفسي في دارك لأرعاك ...

فقال : كنت أريد أن أتزوجك ...

فضحكت متهكمة ثم أعقبت : هيه ... آه ... كان يجب أن أتقدم إليك لأعقد عليك ... أليس كذلك ؟! ... معذرة يا سيدي ... كان يجب أن أفعل ذلك ...

فقال : لقد لوحت لك كثيراً فكنت تماطلين

فأجابته جادة : اسمع . الرجل الذي يريد المرأة ويتمناها لا يسألها رأيها ، ولا يستشيرها ماذا يفعل لنيلها . إنه يقتحم الطريق الشائك في سبيل الوصول إليها ، بل يختطفها من بين ذراعي القدر إن تحداه ، أتفهم ؟

أما هذه التعاويذ الشيطانية التي يلجأ إليها الرجل ليخدر بها أعصاب المرأة ليغليل من عمر الحب ليتم ويتسلى فلا أجيزها ولا أفهمها

أنت تعرف جيداً أنني دفعت الثمن غالياً من عواطفي لإنقاذك ... ولكنك أبيت إلا أن تعيش في الظلام فما ذنبي ...

ولقد أكدت لك أكثر من مرة أنني لم أحبك لأي غاية ولن أحبك أيضاً لغاية ... بل أحببتك لأصلحك ...

إذن لم أكن أنا التي أحببتك ... إنما هو الحب الذي سخرني ليهديك ... فكفرت به

قال : سأكون كما تشائين ... صالحاً تقياً مؤمناً محباً وفياً ... إن قبلتني زوجاً ؛ وإن أبيت فلأمت ، ولتنزل عليك نقمة الله ...

فقالت : الله يعلم كيف أضحي في سبيل الإيمان به بنفسي ...

وهنا دخل خطيبها ملتفتاً إلى الرجل مصوباً إليه نظرة شزراء ، ثم قال : كفى يا صاحبي . لقد فهمت كل شيء ... إنها ملك .

« المنصورة » جميل العطايلي

المجموعة الأولى للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى العصر لموسيه ، والأوذيسة لهوميروس ، ومذكرات نائب في الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة في جزأين
و ٢٤ قرشاً بدون تجليد
خلاف أجرة البريد